شيطاني وشيطانُ طاغور(١)

طاغور هذا شاعرُ الهند ، مرَّ بمصر مرور شمس الشِّتاء باليوم المطير ؛ لا يقع نورُها إلا في القلوب ممَّا تستخفُّ ، وتستهوي ، وممَّا تمتنع ، وتتأبَّى ، وممَّا ترقُّ ، وتلطف ؛ وتنقدح بين السُّحب الهامية ، فإذا لها من الجمال ، والسِّحر ، والعجب ما يكون لجمرةٍ تُخرجها السَّماء معجزةً للنَّاس ، فيرونها ترسل الشُّعاع مرَّةً ، وتمطر الماء مرَّةً .

لم ألقَ طاغور ، ولكنِّي أنفذت إليه شيطاني ، وقلت : أوصيه قبل أن يخرجَ لوجهه : قد علمتَ أنَّ هذا الرَّجلِ هنديٌّ ، لكنَّه إنسانٌ ؛ فما أرضٌ أولى به من أرضٍ ، وأنَّه شاعرٌ ، ولكنَّه مخلوقٌ ، فما طبيعةٌ أغلب عليه من طبيعةٍ ، وأنَّه حكيمٌ ، ولكنَّه تركيبٌ ما جبلت له طينةٌ غير الطِّينة ؛ وأنَّه سماويٌّ ، غير أنَّه سماويٌّ كعلماء الفلك . سماؤه في منظارٍ ، وكتابٍ ، وقلمٍ ، وحبرٍ . . . فاذهب إليه ، فداخلْ شيطانه ، فإنَّك واجدٌ له من ذلك ما لكلِّ الشُّعراء ، وربَّما عرفت شيطانه من ذوي قرابتك ، أو خالصة أهلك ، ثم ائتني بكلامه على جهة ما هو مفكِّرٌ فيه ، لا على جهة ما هو متكلِّم به ؛ وخذ مايهجسُ على قلبه ، ودع ما يجري في لسانه ؛ فإنَّ هذا سيأتي به إخوانك من « مندوبي الصُّحف » . . . واعلم أنَّ كلَّ حكيمٍ مهيَّئٌ لمسائل من حوله كلاماً ، غير أنَّ معاني من حوله مهيَّئةٌ له مسائل أخرى يفكِّر في كلِّ جوابٍ عليها ، ولا ينطق بجوابٍ عليها .

* * *

فحدَّثني شيطاني بعد رجوعه ، قال : حدَّثني شيطان طاغور ، قال : لمَّا هبط طاغور هذا الوادي نظر نظرةً في الشَّمس ، ثمَّ قال : أنتِ هنا ، وأنت هناك ، تقربين بأثرٍ ، وتبعدين بأثرٍ ، وتطالعين بجوٍّ ، وتغربين بجوٍّ ، فلا تختلفين ، وتختلف بكِ الأقاليم ، ثمَّ تتغيَّر بالأقاليم الأمم ، ثمَّ تتغيَّر بالأمم الأفكار والمنازع ، ثمَّ تتغيَّر بالأفكار والمنازع أغراضها ، ومصالحها ، ثمَّ تتغيَّر بمصالحها وأغراضها الحقائق

(١) البلاغ الأسبوعي سنة (١٩٢٦) . (س) .

الإنسانيَّة ، وإنَّما الباطلُ ، والحقُّ فيها تستقبل هذه الحقائق ، أو تستدبر ؛ وقد غلبت السِّياسة على كلِّ شيءٍ ، حتَّى أصبحت هذه الحقائق الإنسانيَّة جغرافيَّة ، لها شعوبٌ ، ولها مستعمراتٌ ، فالإخاء في الغرب سيادةٌ في الشَّرق ، والمساواة هناك امتيازٌ هنا ، والحرِّيَّة في مملكةٍ استعبادٌ لمملكةٍ ، والتَّحيَّة في موضع صفعةٌ في موضع ، والضِّيافة في مكانٍ استئكالٌ في مكانٍ ، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨ ـ ١١٩] فلن يتَّصل النَّاس بالرُّوح الأعلى إلا من الجهة الواحدة الَّتي لم تتغيَّر ، ولن تتغيَّر فيهم ، جهةِ الدُّموع الَّتي لا تختلف في أسود ، ولا أحمر ، والَّتي لا تنبعث إلا من الرِّقَّة ، والوَجد ، والأحزان ، والآلام ، وهي بذلك نسب كلِّ قلبٍ إلى كلِّ قلبٍ ، فلو غمر العالمَ كلَّه بلاءٌ واحدٌ ، لا تحرز منه أرضٌ أهلها ، ولا تتحاجز الأمم فيه ؛ لاستلب مطامع النَّاس بعضهم في بعضٍ ، وأرجع الإنسانيَّة الزَّائغة إلى مستقرِّها ، فتجرَّدوا من الدُّنيا وهم في الدُّنيا ، فاتَّصلوا باللانهاية ، وهم في النِّهاية ، فإن لم يكن بلاءٌ عامٌّ ؛ ففكرٌ عامٌّ في بلاءٍ يميت الشَّهوات المتطلِّعة ، ويكون كالدَّاء تلبَّس بالجنس الإنسانيِّ كالَّذي تصفه الأديان من جهنَّم ، والمصير إليها ، والحساب عندها ، والجزاء على الشَّرِّ بها ، حتَّى لا تبقى نفسٌ إلا وهي في وثاقٍ من حلالها ، وحرامها ، ولا يبقى شرٌّ يتخيَّل ، أو يشتهي إلا وهو كالمتاع النَّفيس بين أربعة جدرانٍ تتساقط ، وتحترق ، لا يجد في كلِّ اللُّصوص لصّاً ، فإن لم يكن هذا ، ولا ذاك ؛ فالحبُّ العامُّ حتَّى لا يبقى جيشٌ ، ولا سلاحٌ ، ولا سياسةٌ ، ولا دولٌ ، ولا تكون الممالك إلا بيوتاً إنسانيَّةً بين الواحدة ، والكلِّ من الشَّابكة ، واللُّحمة ما بين الكلِّ ، والواحدة ، وحتَّى تقول مصر لإنجلترا : يا بنت عمِّي ! . فإن استحال كلُّ هذا ؛ فالحرِّيَّة العامَّة على أن تكون محدودةً من كلِّ جهاتها بالشِّعر ، وعلى أن يكون الشِّعر محدوداً بالطَّبيعة ، والطَّبيعة محدودةٌ بالله ، فيُنتزَع النَّوم من الأرض ؛ لتتَّصل اليقظة بالحلم . . . من طريقٍ غير النَّوم .

قال شيطان طاغور : ثمَّ ابتأس طاغور ، وقال : كلُّ ذلك مستحيلٌ ، أو كالمستحيل ، ولكنَّه في الأمل ممكنٌ ، أو كالممكن ؛ وللَّفظ معنيان : أحدهما ما يكون ، والثَّاني ما يحسن أن يكون ، ذلك لا بدَّ له منَّا ؛ لأنَّه جانب النِّظام الإلـهيِّ ،وهذا لا بدَّ لنا منه ؛ لأنَّه جانب الخيال الإنسانيِّ ؛ وذلك من الطَّبيعة ؛ الَّتي تعمل ، ولا تتكلَّم ، وهذا من الشِّعر ؛ الَّذي يتكلَّم ، ولا يعمل . . آه ! آه !

إنَّما السَّلام العامُّ أن يكون الوجود شركةً إلـهيَّةً إنسانيَّةً برضاً ، واتِّفاقٍ بين الطَّرفين . . ولعمري ! إنَّ كلَّ المستحيلات ممكنةٌ بالإضافة إلى هذا المستحيل .

ثمَّ تبسَّم طاغور ؛ إذ خطر له : أنَّه شاعر عليه أن يصف الوردة ، ويقول فيها ما يجعلها بيت شعرٍ في كتاب الطَّبيعة ، له وزنٌ ، ونغمٌ ، ولكن على الطَّبيعة قبل ذلك أن تنبتها ناضرةً ، عطرةً ، جميلةً تتميَّز من غيرها برائحةٍ ، ولونٍ ، وشكلٍ .

قال شيطانه : ولمَّا انتهى من تأمُّله إلى هذه الخاطرة قدَّمت له سيِّدةٌ هنديَّةٌ عقود الزَّهر ، وبينا هي تقلِّده إيَّاها قال في نفسه : إنَّ هذه الأزهار من معاني الماء العذب ؛ فإذا انطلقنا في أوهامنا وراء الحبِّ العامِّ ، والسَّلام العامِّ ، فلمن تكون معاني الماء الملح ، وهو ثلاثة أرباع الأرض ، ومن أزهاره الأسطول الإنجليزيُّ .

* * *

حدَّثني شيطاني ، قال : حدَّثني شيطان طاغور ، وقال : لمَّا استقرَّ طاغور في قصر شوقي بك ، ورآه في مثل حسن الدِّينار ، ونقشه ، ونفاسته ؛ قال : لا جرم هذه الأمَّة أغنت شاعرها ، فما أخطئ التَّقدير ، وإن أخطأتُه فلا أبعدُ عن المقاربة إذا حسبت : أنَّ هذا الشَّاعر يطبع لهذه الأمَّة نصف مليون نسخة من كلِّ ديوان شعرٍ ، أو دفتر حكمةٍ ، أو كتاب قصَّةٍ ، وليتني أعرف العربيَّة ؛ لأعرف كيف يبدع هذا الشَّعب فلسفته في أغانيه المتَّصلة بغيوم السَّماء المتكلِّم بأحسن ، وأظهر ما يمكن أن يكون ترجمةً للحقيقة الخالدة الَّتي يتوارثها شعبٌ خالدٌ .

الشِّعر فكرةُ الوجود في الإنسان ، وفكرة الإنسان في الوجود ، ولا يكفي أن يُخلق هذا الإنسان مرَّةً واحدةً من لحمٍ ، ودمٍ ، بل لا بدَّ أن يُخلق مرَّةً أخرى من معانٍ ، وألفاظٍ ، وإلا خرج حيواناً أعجم ، فالشَّاعر يبدع أمَّة كاملةً ، إنْ لم يخلقها ؛ فإنَّه يخلق أفكارها الجميلة ، وحكمتها الخالدة ، وآدابها العالية ، وسياستها الموفَّقة ، وما أحسب النَّهضة المصريَّة إلا بالأغاني ، والأناشيد ، فتأتي من إنجلترا جنودٌ ، وتخرج لها من دور الغناء ، والتَّمثيل جنودٌ أخرى ؛ لقد كنت ملهماً حين قلت مرَّةً : « إنَّ الله يخاطب النَّاس عن طريق الموسيقا »[1] .

(١) هذه العبارة من كلام طاغور في محاضرته مما ترجمته جريدة السِّياسة . (ع) .

نعم عن طريق الموسيقا ، فكلُّ شيءٍ هو موسيقا في نفسه ؛ حتَّى حين يتطاحن النَّاس ، ويذبح بعضهم بعضاً ، فإنَّ صلصلة الأسلحة ، ودويَّ القنابل ، وأزيز الرَّصاص ، وتصايح الجند ، كلُّ ذلك لحن أعدَّه الله جلَّت قدرته « وموسيقاه » . . لجنازات الأمم .

* * *

حدَّثني شيطاني ، قال : حدَّثني شيطان طاغور ، قال : ولمَّا رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصريَّة ـ وهي الَّتي دعته إلى إلقاء محاضرته ـ قال : نعم ، وحبّاً ، وكرامةً ، إنَّه لا يستقيم في العقل أن تدعوَ هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلي إلا وهي فلكٌ نيِّرةٌ يعدُّهُ الله من نجومه ، وما أحسب أستاذ آدابها العربيَّة إلا تلك الذَّرَّة اللُّؤلؤيَّة التي كانت تجاورني في طينة الخلق الأزليَّة . فلو أنَّ الذَّرَّات الثماني التي كانت حولنا خلقت في عصرنا هذا ، وتوزَّعت على الأمم الفلسفيَّة ، لكنَّا وإيَّاها كوصايا الله العشر في هذا العصر المادِّيِّ . . . ولملأنا طيَّاتها إيماناً بالله ، ولصار لله تعالى في أرضه عشر آلاتٍ سماويَّةٍ لاسلكيَّةٍ بينه وبين الخلق ، تباهي الجامعة المصريَّة بأنَّ فيها إحداها . . . لقد نغَّص عليَّ هذه الشَّيخوخة أنِّي لم أتعلَّم العربيَّة ، وكيف لي بأن أرتِّل أناشيد أستاذ الآداب في الجامعة المصريَّة ، وأستمتع بألحانه السَّماويَّة في شعره ، وأغانيه ، وأسمع الملائكة من هذه المئذنة الإنسانيَّة في الجامعة تهتف بكلمة الإسلام الرَّهيبة صارخةً بحقيقة الوجود في الوجود : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله . . .

قال شيطاني : وكان شيطان الدُّكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا ، فلمَّا ألمَّ بما في نفس طاغور ؛ قال لي : حَقّاً إنَّ من الخير أن لا يعرف هذا الهنديُّ اللُّغة العربيَّة ؛ لأنَّه لو عرف اللُّغة العربيَّة ؛ لما أرضته اللُّغة العربيَّة ، ولا آداب اللُّغة العربيَّة ، ولا أستاذ آداب اللُّغة العربيَّة ! فقلت : اسكتْ ويحك ! ودَعِ الرَّجل في أحلامه ، ولا تكن غيمة سمائه المشرقة ، أما تراه يحلم ، أما سمعته يقول : « والحقيقة من حيث هي جمالٌ ليس يعدله جمالٌ ، ألست ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبدعها فنانٌ ماهرٌ ، إنَّك تنظر إلى الصُّورة فتقرُّ بجمالها ، ولكنَّ المرأة العجوز الَّتي فيها ليست على شيءٍ من الجمال ، لكنَّما جمال الصُّورة : أنَّها تمثِّل

هذه المرأة العجوز على حقيقتها »[1] فهذه كلماتٌ في سبحات النُّور ، وهي لغة السَّماء ذات الكواكب ، لا من لغة النَّفس ذات العواطف ، وإلا فهل يصحُّ في العقل أنَّ تصوير العجوز التي اضطرب ميزان الخلق فيها ؛ حتَّى لا يزن منها إلا بقايا الخلقة ، وأنقاض العمر ، وخرائب المرأة يكون بما يظهر من شوهتها ، وتهدُّمها ، وتشنُّن جلدها وموت ظاهرها ؛ جمالاً في الصُّورة ؛ لأنَّه قبيحٌ في الأصل ؟ أفليس لو كان ذلك صحيحاً ؛ لملئت المتاحف ، والقصور بألواح العجائز ، ولما بقيت على الأرض عجوزٌ إلا ذهبت لأحد المصوِّرين تقول له : اخلقني ؟!

* * *

حدَّثني شيطاني قال : حدَّثني شيطان طاغور ، قال : وكان طاغور رطب اللِّسان في محاضرته ، كأنَّ غاياتٍ من غاية الهند أمدَّته بكلِّ ما اعتصرته الشَّمس فيها ماءً ، وحياةً ، ونضرةً ، فهو في كلامه ، ومعانيه ورقٌ ، وزهرٌ ، ونسيمٌ ، وظلٌّ ، وحفيفٌ ، وتغريدٌ يسحر النَّاظر إليه ، إذ لا يرى النَّاظر شكله الإنسانيَّ فيه ، بل يراه شيئاً من خياله ، كأنَّما انفصل منه ، فتمثَّل بشراً سويّاً ، ولو أنَّك اطَّلعت يوماً في المرآة ، فإذا خيالك فيها يكلِّمك ، ويستأنسك ، ويلطف لك ، لما أدهشك من ذلك ، ولا أطربك ، ولا استخرج من عجبك ، وذهولك إلا كالَّذي يعتري نفسك حين يكلِّمك طاغور ، وتراه يستخلص آراءه المتصرِّفة بكلامه من روح النَّواميس الإلـٰهيَّة المدبِّرة للكون ؛ فتحسُّه يضيف إليك زيادةً ليست فيك ، فمهما كبرت به تصغر نفسك عندك بين يديه ، ثمَّ هو يتَّصل بروحك مرَّةً في جلال حبِّ الأب لطفله ، ومرَّةً في رِقَّة فرح الطِّفل بأبيه ؛ فإذا أنت منه بموقفٍ عجيبٍ من معجزةٍ إنسانيَّةٍ تروعك بطفلٍ شيخٍ قد اجتمع فيه طرفا العمر ، وجاءَ كأنَّ مظهر روحه الَّتي لا عمر لها .

إنسانٌ كهربائيٌّ يحاول أن يزيد في تركيب النَّاس عظْمةً من حديد ، أو عصباً من سلك ؛ لتصل بهم جميعاً تلك الشُّعلة الطَّائفة ، فإذا هم خلقٌ آخر كأهل الجنَّة يسعى

---

(١) هذه العبارة ممَّا ترجمته السِّياسة من محاضرة طاغور ، وإذا قيل : إنَّ الصناعة في نقل الصُّورة محكمةٌ ؛ فليس معنى ذلك أنَّ الصُّورةَ جميلةٌ ، والمعنى الذي يرمي إليه الشَّاعر معروفٌ ، وقد كتبناه في (السَّحاب الأحمر) ولكنَّه أخطأ في العبارة عنه ، أو أخطأت التَّرجمة . (ع) .

نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ؛ ولكنَّه بصرَ وهو خارجٌ من المسرح بإعلان السِّيما الَّتي تجاوره وما عليه من التَّصاوير ، والتَّهاويل ، فقال في نفسه : بعد قليل تجيء إلى هنا لندن ، وباريس ، ونيويورك ، وغيرها من أرض الله بناسها ، وحيوانها ، ونباتها . يراها الجالسون رأي العين ، ويتَّصلون بها اتِّصالاً بعيداً لا يجعلهم فيها ، ولكنَّه لا يخليهم منها ؛ ويجب لعمرانِ هذه الأرض أن يبقى أهل مصر في مصر ، فلا يدعوها جميعاً ، ليتَّصلوا جميعاً بما تشتاقه أنفسهم من باريس ، أو غير باريس من حقائق العالم الكبرى ، ولا يحسن هذا الاتِّصال إلا إذا خصَّ ، ولم يعمَّ ، فيقوم به الواحد ، والاثنان ، والجماعة ، وتبقى الأمَّة بما هي ، وكما هي لأنَّها بذلك وحده أمَّةٌ ، كما أنَّ النَّاس بطبائعهم ناسٌ ، والكون باختلافه كونٌ ، فهيهات هيهات الحبُّ العامُّ ، والسَّلام العامُّ ، والاتِّصال العامُّ بالحقيقة الرُّوحيَّة العليا ! ثمَّ تبسَّم ، وقال : ما أشبهني بهذه السِّيما ، غير أنَّ شريطي لا يرى فيه النَّاس روايةً من لندن ، وباريس ، بل روايةٌ وقعت حوادثها في جنَّة الخلد .

* * *